جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قسم اللغة العربية

الندوة الوطنية الموسومة:

" القصيدة النوفمبرية- الرؤيا والتشكيل "

استمارة المشاركة:

الاسم الكامل:	منصف شلي
الرتبة العلمية:	أستاذ التعليم العالي
التخصص:	أدب قديم
مؤسسة الانتماء:	جامعة قسنطينة1
البريد الإلكتروني:	chelli.moncef@gmail.com
رقم الهاتف:	0777897170

عنوان المداخلة:

" قصيدة الثورة الجزائرية في مذكرات أحمد توفيق المدني: (حياة كفاح) وقيمتها التاريخية والفنية"

تستهدف هذه الورقة البحثية استهداف القيمة التوثيقية والجمالية والفنية لقصائد الثورة الجزائرية في أدب المذكرات.

وقد وقع اختيارنا على مذكرات المثقف المؤرخ الألمعي المرحوم أحمد توفيق المدني (1899-ل1983م) الموسومة: (حياة كفاح) المزمع المشاركة بها في ندوة: "القصيدة النوفمبرية- الرؤيا والتشكيل" والتي ستنعقد بإذن الله في رحاب قسم اللغة العربية العامر بجامعة الأمير عبد القادر الإسلامية العريقة.

ديباجة البحث:

عكس الشعر الجزائري المتعلق بثورة نوفمبر الخالدة، عظمت هذه الثورة وخلودها وعبّر عن تجربتها وروحها وتحدياتها، كما عبر عن طموح ووجدان الأمة الجزائرية التي انبعثت من رمادها وانعتقت

من عبوديتها ومضت قدما نحو حريتها. وحطمت تلك القيود والأغلال التي حاولت تكبيل حريتها لمدة فاقت مائة وثلاثين سنة.

ولم يكن بد للشاعر أن يعيش بعيدا ومنزويا ومنفصلا عن قضيته الكبرى وهي قضية التحرير الوطني وما يصطرع فيها من نضال شعبه وأمته تجاه حريته وكرامته.

وكذا الشأن بالنسبة للشاعر العربي و مختلف شعراء المعمورة أصحاب الضمائر الحية التي تتقاسم المبادئ نفسها وإن اختلفت مرجعياتها ، فالطرح واحد والقاسم المشترك هو الإنسان بغض النظر عن ارتباطاته وانتماءاته.

وقد ارتفع الشعراء و تساموا بالصورة المأساوية إلى رؤيا أشد عُلُوًّا وتساميا - أعني بها الرؤيا الفنية – فجاءت الصورة الشعرية الجميلة لتعبر عن صحوة الضمير الإنساني العالمي المكلوم لتكمل الصورة الحبرية مثيلتها الدموية.

وقد اتخذ كل شاعر وأديب مسلكا وتوجها معينا للتعبير عن هذه الثورة الجليلة ، حيث كان مسلكه يتحدد بفضل تضافر عوامل تتصل بثقافة الأديب ومرجعياته وروحه وتوجهه الفني ومكانته سواء السياسية أو الاجتماعية والثقافية والفنية. ولكن الأكيد أن الجميع مغتبط بهذا الانعتاق، وسيسعى من خلال خياله ومداركه ومقدراته الفنية إلى مداعبة فردوس الحرية والبطولة وكانت هذه الملحمة العظيمة بأحداثها الجسيمة ذات أهمية خاصة عند مرهفي الحس من المبدعين الذين لم يجدوا غضاضة أو نفورا في ذم المستعمر والإشادة بملحمة الأبطال، حيث شاركوا مشاركة وجدانية عاطفية رحبة هي الوجه الآخر لهذه الثورة في بناها العميقة، وقد قيل: "ليس من يكتب بدم القلب كمن يكتب بالمداد" أو كما قال أحدهم: "وعلى قدر الفتنة يأتي النفور"[1]

وكل شعب مكسور ومكلوم يصنع قدره بنفسه، وينسج خيوط حريته من إرادته، فأينما ولّى وجهه -حينئذ – فثم وجه الله، والأقدار غالبة ولكنها تسعف -ولا ريب- كل طموح.

وكان المثقف والأديب والشاعر الجزائري -وهي ثورته – في الطليعة في هذا الشأن، حيث اختَطَّ يراعه فصول ملحمته، وطاوع قلمه شعوره، وسارا معا في ركب الإبداع، حيث جاءت قصائد الثورة الجزائرية تترى إبان الثورة التحريرية المباركة أو حتى بعد الاستقلال.

---

[1]- عبد الفتاح كيليطو ، الأدب والغرابة دراسة بنيوية في الأدب العربي، دار توبقال، المغرب، ط4، 2007، ص111

ويطيب لنا في هذا المقام التذكير بأن ماقيل من أشعار في الجزائر والدفاع عنها هو حديث النشأة قد بدأ مع فجر الثورة النوفمرية المباركة بل هو ميراث أخذ صفة العلامة البارزة. فقد كانت الجزائر تسمى ببلاد الجهاد، وكانت قاعدة لأعمال الجهاد ضد إسبانيا وبصفة رسمية، إلى أن تطهرت البلاد الجزائرية وبصفة تامة ومطلقة من أدران الاحتلال الإسباني.[1]

ويحفل التاريخ الجزائري بصور النصر المجيدة ضد الغزاة الإسبان، وبملاحم شعراء الجزائر الخالدة في هذا المجال، مثلما صنع الشيخ أحمد بن سحنون الراشدي الذي وثق الحملة العسكرية التي قادها الباي محمد بن عثمان الكبير باي الغرب الجزائري ضد الاحتلال الاسباني في كتاب سماه: "الثغر الجُماني في ابتسام الثّغر الوهراني" والذي انتهى منه سنة: (1799هـ – 1208م) ويقال إن باي الغرب الجزائري قد أشرك العلماء والمثقفين والشعراء والإخباريين في هذه الحملة التي دامت عاما كاملا (1205-1206هـ/ 1791- 1792م). حيث كان الثغر الجماني بالأصل أرجوزة شعرية مجدت هذا النصر المُبين بحرب دامت ثلاثمائة سنة من سنة (1492- 1792م).

وهي ملحمة هائلة كُنا أبطالها وكُنا ضحاياها في الوقت نفسه كما يقول الكاتب أحمد توفيق المدني.[2]

وكانت لحظات النصر والاستشهاد والتخليد هي اعزاز الدين وللوطن وللإنسان "وحينما تستعاد ذكريات المفاخر القومية تكون في غالب الأحيان ذكريات خيضت غمارها ضد المضطهدين الأجانب وذكريات غارات وغزوات وردات فعل على الهمجية. "[3]

وقد ذكرت كتب التاريخ وبعض الحوليات والمذكرات ممن شهد أصحابها تلك الفترة أن السلطان العثماني مصطفى ابن السلطان أحمد العثماني – رحمهما الله – بطلب المراكب الجهادية الإسلامية من الجزائر إلى استامبول سنة (1183هـ) فامتثل الباشا لأمر السلطان وأرسل إليه خمسة مراكب مصحوبة بالسلامة والظفر والتأييد.[4]

1- أحمد توفيق المدني في مقدمة تحقيقه لمذكرات نقيب الأشراف الحاج أحمد الشريف الزهار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974م، ص9

2- حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا (1492- 1792م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص5

3- هيجيل: فن الشعر، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، ص146

4- مذكرات الحاج محمد الشريف الزهار، ص28

والباشا نفسه أرسل الحاج محمد رايس – رحمه الله – بخمسة مراكب إلى جزيرة كريت اليونانية فأقامت مُحاربةً العدو ستة أشهر ورجعت إلى الجزائر.[1]

وأرسلت هذه المراكب مرة ثالثة سنة (1187هـ) بعد تَقَلُّد السلطان عبد الحميد الحكم وعلى رأسها الحاج سليمان الجزائري رحمه الله فهزم الجزائريون اليونانيين وأسروا زعيمهم في معركة بحرية وأحرقوا مراكب اليونانيين، وسارت هذه المراكب مظفرة إلى عاصمة الخلافة العثمانية فاستبشر السلطان عبد الحميد بذلك وأكرم وفادته، فاستقبلوا في اسطنبول استقبال الأبطال.[2]

وقد وثق الحاج أحمد الشريف الزهار (1196هـ-1781م_ 1289هـ-1871م) بوصفه شخصية ذا مكانة مهمة في المجتمع الجزائري وفي العاصمة خصوصا، كل تلك الوقائع في مذكرات كانت أصدق شاهد على أحداث تلك الفترة.

وحينما نقول مذكرات فإننا نستهدف بها ذلك الشكل الأدبي الجديد الذي ظهر على مسرح الحياة الفنية العالمية وكذلك الجزائرية. وعليه فإن الأمر ليس بدعا في الصفحتين الجهادية والفنية الجزائرية، فما سالت دماء الشهداء إلا ورافقتها مداد الأدباء والشعراء، فكذلك كان الأمر في الثورة الجزائرية والتي خُلِّدت بأروع القصائد، وأحلى الأشعار.

فقد ظهر جيل من الشعراء وعلى رأسهم مفدي زكرياء ومحمد العيد آل خليفة وأبو القاسم سعد الله وغيرهم من طبقات الشعراء التي شكّلت توليفة التأريخ الفني للثورة الجزائرية والتغني بأمجادها وبطولاتها وتصوير وقائعها وذكر رموزها وأحداثها . سواء إبَّان الثورة أو بعد الاستقلال وإلى اليوم.

ولا عجب من ذلك فإن الشعر العربي وشعر التغني بالأمجاد والبطولات يعد ضربا من التسجيل والفخر القومي، فعادة ما تكون في هذه الأشعار طريقا للنفاذ من خلالها إلى الشعوب، وإلى رؤيتها للعلم والحياة."[3] حتى إن هيجل نفسه جعل الشعوب التي لا تحتوي على ملاحم تكتب فيها قدرها ومصيرها وتعالج بطولاتها. شعوب مشكوك فيها، وبالفعل لو كان أمكنها أن تؤسس نفسها في تلك الحقب البطولية."[4]

والجزائر المؤسَّسة بالفعل والقوة قديما وحديثا بتاريخها وأمجادها وبطولاتها، هاهي تصنع لحظة أخرى في العصر الحديث، وهي لحظة التجديد والاستمرار.

1- المصدر نفسه: ص29

2- المصدر نفسه: ص29، 30

3- هيجل: فن الشعر ، ص: 146

4- المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

حاول كثير من الكتاب أن يخلدوا عظمة الثورة، فكثرت الدراسات والمعالجات، ولم يكن عيبا على أصحاب المذكرات أن يعزفوا عن هذا التقليد الجميل أعني الكتابة للثورة وعن الثورة وعن أحداثها ووقائعها ومن كتب عنها .

فأخذت منجزاتهم بُعدان: الأول تاريخي والثاني جمالي، وهذا واحد من الشخصيات الجزائرية ذات المكانة السامقة فكريا وثقافيا وسياسيا وتاريخيا توفيق المدني، يكتب مذكرات حياته بعنوان: (حياة كفاح) في ثلاثة أجزاء.

وحينما نقول مذكرات "فإننا نقصد بها تلك الكتابة الإبداعية الجديدة والتي ظهرت على مسرح الحياة الأدبية والفنية العالمية والعربية والجزائرية. ولاريب "في أن التاريخ والعدل يقومان على ما تمنحه الشهادة من أهمية "[1] ولهذا فقد جاءت مذكراته تلبية لحاجات النصية، كما كانت تلبية لصون الذاكرة القومية من النسيان، سواء الفنية أو التاريخية. "ففي التاريخ من الصور الأدبية ما يشرح لهم بعض ما كان يجري في تلك الحقبة الحافلة."[2]

لِزام علينا بعد كل ذلك كله أن نجد تعليلا لكل القصائد الثورية النوفمرية التي تضمنتها مذكرات أحمد توفيق المدني (حياة كفاح) خاصة في القسم الثالث من خلال نماذجه المختارة بوصفها صوت الثورة وضمير الشعب الصاحي وصوته العميق وأنَاه الذي يتردد في صداها.

ولهذا فإن المزاوجة بين التاريخي والفني؛ لأن الأحداث التاريخية لا يكتمل صداها إلا بالصور الفنية، فالمعايير الفنية هي التي تحكم القيمة والمنجز" [3]

فالمؤرخ وكاتب المذكرات وإن كان مُسجِّلا للوقائع وذاكرا للأحداث، فإن الشاعر يعيد خلق الواقع بكل تفاصيله "وكثيرا ما تترك الكتب التاريخية الخالصة بعض التفاصيل وتتلقاها قصيدة المدح الحربي إن صح التعبير" [4]

---

[1]- غوستاف لوبون: فلسفة التاريخ، ترجمة عادل زعيتر ، مؤسسة هنداوي، 2011

2- طه حسين: ألوان، دار المعارف، القاهرة، مصر، د ت، ص6

3- عبد الفتاح كيليطو: الأدب والغرابة، ص26

4- شوقي ضيف: الشعر وطوابعه على مر العصور، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط2، دت، ص97

أحمد توفيق المدني السيرة والأثر

ولد العلامة أحمد توفيق المدني سنة (1899م) لعائلة جزائرية هاجرت إلى تونس أواخر القرن التاسع عشر هربا من بطش الاستعمار الفرنسي البغيض بعد فشل كثير من الثورات الشعبية، من أبوين جزائريين أصيلين، فالوالدة عائشة بويزار كريمة المحتد، والوالد محمد المدني كان من كبار علماء ومثقفي الجزائر في تلك الفترة، وكان جده لأبيه صاحب المقام العالي شيخ بلدية الجزائر العاصمة. وفي تونس تلقى تعليمه في المدرستين العريقتين: جامع الزيتونة والخلدونية، ثم المدرسة القرآنية الأصلية، وهنا برز تكوينه العام في التاريخ والصحافة وفن التأليف فيهما.

ويبدو أثر تكوين أساتذته جليا في الطابع الموسوعي الذي يحوزه فقد درس عند شيخ المؤرخين التونسيين المرحوم حسن حسني عبد الوهاب (1884-1968م). كما درس عند أعلام القطر التونسي في جامع الزيتونة مثل الشيخ النخلي في التفسير ، والشيخ محمد الصادق النيفر في الفقه وغيرهم من طبقات الأعلام والمشايخ والأساتيذ هناك. ولسنا هنا في مقام التأريخ في مقام الرجل الذي لا تسعه الأسفار والكتب والمجلدات، فقد كان ناشطا سياسيا بارزا في تونس رغم حداثة سنِّه مع فتية من أهل تونس الصادقين ما حتَّم دخوله السجن سنة (1915م) حتى نهاية الحرب الكونية الأولى، ثم أبعد إلى الجزائر وطنه الأم سنة (1925م) حيث واصل نشاطه السياسي إلى جانب مجاله الثقافي والعلمي والتاريخي والفني، فقد كان عضوا في نادي الترقي ثم في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، حيث أصبح أمينا عاما لديها، ورئيسا لتحرير لسانها جريدة البصائر حتى سنة (1956م) .

وقد تقلَّد أكثر من منصب سياسي وديبلوماسي وعلمي، بدء من تعيينه عضوا في الوفد الخارجي لحزب جبهة التحرير الوطني، ثم وزيرا في الحكومة الجزائرية المؤقتة سنة (1958م) كما تقلد منصب وزير الشؤون الدينية (1969-1979م)، إضافة إلى توليه عدة حقائب دبلوماسية، وسفيرا في بغداد وطهران فأنقرة وإسلام آباد، كما عُيِّن في المركز الوطني للدراسات التاريخية.

ولبَّى داعي الحق في:(18 أكتوبر 1983م) عليه رحمة الله، بعد مسيرة نضالية وثقافية مظفرة، وكان يوميا مشهودا بوفاته بعد أن خلَّف مصنفات شتى في سائر صنوف المعارف والتاريخ والآداب، منها: كتاب تقويم المنصور بأجزائه الخمسة والذي صدر تباعا سنوات: (1922، 1923، 1924، 1925، 1930م) ويشمل أبوابا من العلوم والسياسة والتاريخ، والجغرافية.

وكتاب (هذه هي الجزائر) ، (محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791) (المسلمون في صقلية وجنوب إيطاليا) ، (جغرافية القطر الجزائري) ، (مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار) ، (حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492 – 1792م).

ولسنا نبالغ أو نغالي في الحكم إذا قلنا أن الشيخ أحمد توفيق المدني هو عميد المؤرخين الجزائريين في العصر الحديث دون استثناء، فأثره يشهد بصحة ما نقول، وسيرته التي اختطها بنفسه في مذكراته موضوع الدراسة (حياة كفاح) تبين ذلك.

وصف المدونة:

(حياة كفاح) أو مذكرات العلّامة أحمد توفيق المدني، كتاب يجمع بين فني السيرة الذاتية والمذكرات؛ حيث إنه ينطوي على سيرته حياته وعلى مختلف المشاهدات والمعاينات، ورصد للواقع بقلم المؤلف، فقد كان شاهدا عليها.

يقع الكتاب في ثلاثة أجزاء، لم تسعف الأقدار صاحبها أن يكمل الرابع، وقد ناهزت في مجملها (1386) صفحة قسّمها الكاتب إلى ثلاث مراحل حاسمة في حياته وهي:

القسم الأول: يغطي الفترة الممتدة من سنة: (1905-1925م) ويشمل معظم نشاطه ونضاله وتحصيله وتكوينه في تونس.

القسم الثاني: يمتد من سنة (1925-1954م) وهي مرحلة مِفْصلية في حياته خصوصا بعد نشاطه مع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. وقد خاض في هذا القسم في الحديث عن معركة الإصلاح الاجتماعي والديني ومُحاولا التأريخ والتأصيل للشخصية الوطنية الجزائرية، وما اقتضته طبيعة تلك المرحلة في مواجهة خطر طمس الشخصية الجزائرية التي مارسها المستعمر الفرنسي.

القسم الثالث: والأخير في هذه المذكرات وهو القسم الذي أرَّخ فيه لمسار الثورة الجزائرية (1954-1962م) حتى الاستقلال وأهم ما انطوت عليه من أحداث.

أول ما يستوقف النظر ويسترعي الانتباه أن المؤلف قد استهل الجزء الثالث من مذكراته – والتي قصرها على حقبة التحرير المجيدة – بديباجة جميلة اصطفاها أُمًّا لكتابه، وقد سيقت بلغة شعرية تقطر بأعذب ألحان لغة الضاد، كانت إيذانا منه لنقطة انطلاق لغة فنية تختلف عما ألف في الجزئين السابقين. وفي قالب مغاير حلمت هذه اللغة طاقة دلالة أشد وأقوى من لغة النثر المستخدمة في مذكراته

الأولى، كما آذنت بانتقال الانفعال والعواطف إلى مستوى آخر تماما، يستدعي حضورا آخر ولغة أخرى، وشكلا فنيا آخر مُتَساوقًا مع عظمة الحدث وجلال المرحلة المُتحدَّث عنها والمؤرخ لها ولأبطالها، حيث قال: "رضي الله عنهم وأرضاهم، وبوأهم مقاعد صدق في جنات النعيم، أولئك هم الرجال، أولئك هم الأبطال، أولئك هم المؤمنين، ذكراهم منقوشة على صفحات القلوب المؤمنة، جهادهم وتضحياتهم، ومثاليتهم محفوظة في سجل التاريخ المجيد."[1]

وليس من الممكن أن نمضي أكثر مما ذكرنا في حديثنا عن هذه اللغة الشعرية التي فجرت طاقة المؤلف الإبداعية، فهي منثورة في كل صفحات وأجزاء الكتاب، تلك حقيقة ساطعة لا تحتاج إلى دليل يسندها أو حجة تدعمها.

حيث يمضي قدما وتزداد لغته الإبداعية إيغالا ورمزية في مدح الرعيل الأول الذين خططوا ونفذوا وهيأوا قبل ذلك لمعركة نوفمبر الخالدة كما ذكر في صدر كتابه الثالث: "الذين كانوا الشرارة الأولى التي انقضت على الاستعمار ، كأنها إعصار فيه نار، فإذا بالثورة العارمة تضطرم، وإذا بالأرض زلزلت زلزالها، وأخرجت الأرض أثقالها"[2]

إن الرسالة الإبداعية التي ابتعثها المؤلف في هذا الخطاب الاستهلالي تبدو قوية مشحونة ومشفوعة بمعاني أعمق وتمثلات أرحب استمدها الكاتب من القرآن الكريم من سورة الزلزلة؛ فالأرض التي تخرج أثقالها وأحمالها ومافي بطنها يوم المحشر بإذن ربها إيذانا بيوم الحساب الذي بدأ، وأن ميزان العدالة والحق قد تجلى في أمر الله. فليلة نوفمبر الخالدة هي من قبيل إسقاط الغائب على الشاهد، وليس بوضع الطرفين على جانب واحد في الأهمية صراحة، ولكن حكمة الله تجلت في نماذجه ومختاراته من أيامه وعباده.

ولا تلبث تلك اللغة الشعرية أن يصيبها التحول على المستوى الأجناسي حتى صارت شعرا وأصبح المؤلف نفسه ناظما حيث يقول عن أبطال الثورة المجيدة:

أولئك هم بناة المجد

أولئك هم حماة الوطن

---

[1]- أحمد توفيق المدني: حياة كفاح، الجزء الثالث (مع ركب الثورة الجزائرية) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م، ص9

2- المصدر نفسه: الصفحة نفسها

أولئك هم أبطال الحرية[1]

لعل أول ما يلاحظ على هذه الأبيات أنها أقرب إلى الشعر المنثور، وأن معانيها أكثر من لغتها، وطاقتها أعظم من جهدها، لأنها تلخص أعظم صفات صناع ملحمة الثورة وأهدافهم ومجمل شمائلهم التي ظلت نبراسا للاتباع والاقتداء ومصدرا للإلهام، والإبداع فهم(بناة، حماة، أبطال).

أما الأهداف المنشودة فهي ثلاثية تستحق كُل تضحية، وكل ثناء وتقدر (المجد-الوطن-الحرية) فهي تحتل بؤرة محورية وحَيِّزًا مهما خلع عليها أبسط كلماته وأعمق معانيه، وقديما قال النَّفري: "إذا اتسعت الرؤية ضاقت العبارة" في كتابه (المواقف والمخاطبات).

ولأن كاتب المذكرات هو الناطق بلسان جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وبحكم طبيعة تكوينه الديني واللغوي والتراثي فإن لغته إيحائية إبداعية متجددة وذات معاني فيضية.

كذلك فإن جل الإشارات الواردة في هذه المذكرات ذات الطابع الأدبي ومعظم الرسائل والخطابات المتضمنة فيه هي إبداعات أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين البارزين وأعضائها المؤسسين، وشيوخها وأدبائها المفوهين الذين خلعوا عن العربية كل تجديد في أساليب البيان وروائع التبيين ، و ممن عركتهم التجارب الفنية، وحنكتهم الصور النماذج التراثية البيانية، وألقت إليهم لغة الضاد – ثورتهم المباركة وجعلتها مصدر إبداعهم، وأوعزت إليهم بكل طاقاتها وشتى صنوف أنواع التعبير والتحبير.

والمرء مرتبط بتراثه ارتباطا وثيقا لا ينفك عنه غالبا فهو مؤطر بتراثه، كما أن "كل الشعوب تفكر بتراثها."[2]

لهذا فقد ورد نداء رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الشيخ البشير الإبراهيمي إلى الشعب الجزائري عشية اندلاع الثورة التحريرية، ونقله كاتب المذكرات منه: "أيها المسلمون الجزائريون السلام عليكم ورحمة الله وبركاته... حياكم الله وأحيا بكم الجزائر ، وجعل منكم نورا يمشي من بين يديها ومن خلفها ، هذا هو الصوت الذي يسمع الآذان الصم، وهذا هو الدواء الذي يفتح الأعين المغمضمة..."[3]

ومنه: "إن كتبتم البسملة بالدماء في صفحة الجهاد الطويلة فملأوها بآيات البطولة التي هي شعاركم في التاريخ، وهي إرث العروبة والإسلام فيكم."[4]

1- أحمد توفيق المدني: حياة كفاح، ج3

2- محمد عابد الجابري: نحن والتراث، قراءة معاصرة في تراثنا الفلسفي، مركز الوحدة العربية، بيروت، لبنان، دت، ص54.

3- أحمد توفيق المدني: حياة كفاح، ج3، ص26

4- المصدر نفسه، ص 29، والبيان كاملا من ص 26 إلى ص 30

ولأن المؤلف يفقه لغة الضاد وخبير بدروب الصنعة اللفظية والتجويد اللفظي الفني فلم يضمن مذكراته إلا كل لغة تنبض بالحياة، وكل بيان وتجويد، ففي غمرة الحماسة للثورة وأهلها وفي سفرياته الرسمية إلى المغرب وقد رأى آثار امتداد ثورتنا المباركة هناك، وقد تفاعلت كل الشعوب المغاربية والعربية بلهيب الثورة وبدعوتها المباركة أنشد المؤلف متمثلا ببيت شعري للمتنبي يقول فيه:

لا يعــرف الشــوق إلا مــن يكابــده *** ولا الصـــبابة إلا مـــن يعانيهـــا[1]

ثم يقول في ختام ذلك كله: "وتستأنف كتابة الصحف المطهرة في سجل التاريخ الشريف."[2]

وتعكس الأشعار والقصائد والأبيات المفردة، والأمثال التي يوردها أحمد توفيق المدني في مذكراته، واستيحاؤه من التراث العربي التليد بشقيه اللغوي والأدبي الفني صدق التجربة وعمق الإحساس، وذلك أمر لا جدال فيه فقد بلغ في ذلك من المهارة شأوا بعيدا.

وليس الأمر غريبا على مكين اللغة والتراث فقد أزمع الظفر بمختلف صنوف المعارف المحصلة، وهيأ لهذا الرجل عدته وأي عدة. ولهذا فإننا لا نعجب تقاطع الخطابين التوثيقي مع اللغوي و التأريخي مع الفني؛ حيث كانت هذه المذكرات رافدا معرفيا متنوعا وجليلا، ها هو يقول عن سفريته إلى المغرب وبعد أن أعطيت له الكلمة: "وتكلم قلبي فلا أستطيع أن ألخص لكم ما قال. إنما كنت أظن أن كلماته تحل في سويداء القلوب، وكانت أقواله تقابل بشهقات جماعية تسيل لها العبرات على الخدود، وكانت تقابل أحيانا بهتافات تبلغ عنان السماء، وأذكر أن قلبي قد توجه بخطابه إلى إدريس الأكبر ، ويوسف بن تاشفين، وعبد المؤمن بن علي، وغيرهم..." [3] وختم قلبي خطابه بقول أحمد شوقي:

ومَـــا نَيْـــلُ الرَّغَائِـــبِ بِـــالتَّمَنِّي *** وَلَكِـــن تُؤْخَـــذُ الـــدُّنْيَا غِلَابَـــا[4]

والمؤلف لا يفتأ يمتاح من هذا التراث لتنميق وتدبيج أفكاره في معانقة جميلة بين القديم والحديث، و مسابقة الفكر للغة، والمعنى للأسلوب، مثلما نجده في معرض حديثه في مقال له صدر في البصائر، العدد رقم (311)، بعنوان: (الاعتراف الخطير)، باثا حزنه وشكواه إلى الله، متحسرا على أمته الجزائرية في مواجهة خطر الطمس والاندماج الذي يسعى إليه المستعمر، فقد ذكر في آخر المقال المثل

1- أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، ص50

2- المصدر نفسه، ص52

3- المصدر نفسه،ص57

4- المصدر نفسه: الصفحة نفسها

العربي الشهير: (إن غدا لناظره قريب)[1] والذي قاله رقاد بن أجدع في قصته الشهيرة مع النعمان بن المتعذر.

أما عن حضور الثورة الجزائرية في هذه المذكرات فهو حضور أملته طبيعة المدونة التسجيلية، حيث لم يكن الموقف تأريخيا للآداب في مقصديته، وإنما اقتضاه المقام والمقصد، وطبيعة الموقف، حيث نعثر على بغيتنا من خلال ثلة من الشعراء المجودين، كان لهم باع طويل وكانت لديهم اليد الطولى في نظم الشعر وتصريف القريض.

ففي معرض حديثه عن نية أعضاء من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تكريمه بعد مرور ثلاثين سنة على دخوله الجزائر موطن آبائه وأجداده بعد نفي فرنسا الاستعمارية له سنة (1925م).

وكان التكريم سنة: 1955م أي بعد مرور شهور قليلة من بداية الثورة، احتج المؤلف بأن المقام ليس مقام تكريم الشخصيات فكان جوابهم حاسما وقالوا له: "في هذه الفترة بالذات تريد أن نبرز قيمة رجالنا وتعلقنا بهم والتفافنا حولهم."[2]

وقد ذكر المؤلف هذا الموقف العاطفي موضحا سبب إيراده لهذه القصائد الأربع فقط في قوله: "وكانت حفلة من أجمل وأبدع الحفلات يسودها التفاؤل العظيم، والإيمان بنصر الجزائر بعد الجهاد العنيف، وأبدع الشعراء، وأبدع الأدباء في تقديم آياتهم البيّنات مع ما فيها من مبالغات فادحة في شخصي الضعيف، فأجبت على كل ذلك بما يناسب المقام وما يشفي أيضا، وإني مقدم ها هنا أربع قصائد التي قيلت بهذه المناسبة، لأنها تصور الثوم وشعورهم، والأحاسيس التي تملأ جوانحهم ، ولما يمض على الثورة العارمة إلا ثمانية أشهر فقط.

فلست بناشر هذه القصائد العصما، شهد الله، لما فيها من شكر لشخصي، وثناء على عملي، بل لما سجلته بين سطورها من آيات بينات تتجلى فيها روح الثورة المتعالية، وعزيمة التحرر المتقدة، والإيمان الراسخ بمستقبل الشعب السعيد تحت راية الحرية الحمراء، والاستقلال الوهاج."[3]

والسبب واضح وجلي في تثبيت هذه القصائد الأربع من قبل المؤلف لأربعة شعراء هم أركان الشعر الجزائري الحديث في شقه الثوري وهم: المرحوم عبد الكريم العقون، وأحمد سحنون، ومفدي زكرياء، وأبو القاسم سعد الله.

---

[1]- أحمد توفيق المدني: حياة كفاح، ج3 ،ص57

2- المصدر نفسه: ص70

3- أحمد توفيق المدني: حياة كفاح، ج3، ص70

وأولى هذه القصائد هي تلك المطولة الرائعة للشاعر: عبد الكريم العقون، والتي تقع في ستة وأربعين بيتا ومطلعها:

كفاحك أحمد يطوي السنين! *** فسل عنه يا ليث هذا العرين

لقد ذدت عنه العدى ثابتـــا *** أمام الأعاصير، والظالميـــن

وكافحت يا بطـــلا خـــالدا! *** عن العرب تحمي حماهم أمين

فأمعنت في المجد تبغي الخلود، *** كأجدادك العرب الخالديـــن

وجردته كالحسام يراعـــــا *** سنى نوره كاد يغشى العيون[1]

والقصيدة الثانية لأمير الشعراء - كما سماه المؤلف - أحمد سحنون وتقع في خمسة عشر بيتا ومطلعها:

يا جمال البصائـــــر *** وجليل المآثـــــر

وجدير بأن يكـــــــو *** ن إمام الجزائـــر

سوف تغدو بخير سعي *** ك خير الجزائـــر

سوف يأتي صباحهـــا *** بعد هدى الدياجر

مؤذنا بانتصـــارهـــا *** معلنا للبشائـــــر[2]

وأخرى لشاعر الثورة مفدي زكرياء وعدد أبياتها اثنين وأربعين بيتا ومطلعها:

شاكر الفضل ليس يقدم شكرا *** خلدوها إذن لأحمد ذكـــــري

واكتبوها وليقرأ الجيل منـــها *** في كتاب الجزائر اليوم سطرا

واذكروا اليوم وهو عيد *** الضحايا رمز الضحايا

[1]- المصدر نفسه، ص 91، 92

2- المصدر نفسه، ص 95

والثلاثين قد قضاها نضـــــالا * وجلادا تخالها اليوم شهـــرا**

عامرات بالجد إن تنشــروهــا * تنتشر في ذرى الجزائر عطرا[1]**

والقصيدة الرابعة التي أوردها أحمد توفيق المدني هي لشاعر الوطنية والعاطفة والإحساس – كما سماه - أبو القاسم سعد الله، وهي من الشعر الحر ومنها:

ثمل الشعر فغنى

للندامى

أنشدات

نابضات بالحياة

والخزامى

وتدنى

من فم الفجر الوضى

يلثم النور بظمآن روى

ويطوف

بالضفاف الخضر والظل الوريف

كلما اشتاق تلاقى

منح النغم لساق ...

واستهاما

بالندامى

أنشدات خالدات

[1]- المصدر نفسه، ص 95، 96

من روابي السندس

من صدى وهران حتى تونس

ومراعي الشيح في البيد الغضاب

ومغاني الأنس في أرض التصابي..

أنشدات تتصادى

كلما الصبح تهادى

عبر أرواح الضحايا[1]

ثبت المصادر والمراجع:

[1]- المصدر نفسه، ص 98، 99

1. أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا (1492- 1792م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
   - حياة كفاح، الجزء الثالث (مع ركب الثورة الجزائرية) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
   - مقدمة تحقيقه لمذكرات نقيب الأشراف الحاج أحمد الشريف الزهار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
2. شوقي ضيف: الشعر وطوابعه على مر العصور، دار المعارف، القاهرة، مصر.
3. طه حسين: ألوان، دار المعارف، القاهرة، مصر.
4. غوستاف لوبون: فلسفة التاريخ، ترجمة عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي.
5. عبد الفتاح كيليطو، الأدب والغرابة دراسة بنيوية في الأدب العربي، دار توبقال، المغرب.
6. محمد عابد الجابري: نحن والتراث، قراءة معاصرة في تراثنا الفلسفي، مركز الوحدة العربية، بيروت، لبنان.
7. هيجيل: فن الشعر، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت